م.م ميـسم عبد الحســـن حيـــدر

المرحلة الرابعة / فقـــه اللغـــة

maysam.abdulhasan@uomustansiriyah.edu.iq

نشاة اللغة ونظرياتها

ان اللغة في اكثر تعريفاتها هي رموز صوتية يعبر بها المتكلم عن افكاره ومقاصده . وتؤكد التعريفات على الطبيعة الصوتية للغة والوظيفة الاجتماعية لها وتنوع البنية اللغوية من مجتمع انساني لاخر.

اما في موضوع نشاة اللغة الانسانية الاولى فقد اهتم الباحثون منذ اقدم العصور بموضوع نشاة اللغة كونها اهم المؤسسات الاجتماعية عند الانسان ، وربما كان هذا الموضوع من اقدم المشاكل الفكرية التي جابهت عقل الانسان ، فكثرت البحوث فيه وتعددت الاراء بصدده والتي تقوم على الحدس والتخمين .

وقد تعددت المذاهب والفرضيات التي تفسر نشاة اللغة الانسانية عند الباحثين قديما وحديثا ، ومنها:

1. نظرية الالهام والوحي والتوقيف :

تذهب هذه النظرية الى ان اللغة هي الهام من الله ، وانه سبحانه وتعالى اوحى الى الانسان الاول واوقفه على اسماء الاشياء بعد ان علمه النطق ، وقد ذهب الى هذا الراي ابو عثمان الجاحظ (ت255هـ) واحمد بن فارس (ت 395هـ) الذي يرى ان لغة العرب توقيفية .
ودليل هؤلاء دليل نقلي لاعقلي ، ذلك انهم يعتمدون على قوله تعالى " وعلم ادم الاسماء كلها " ، وعلى ما ورد في العهد القديم من الانجيل ، من ان الله اشار الى كل حيوانات البر وكل طيور السماء فاحضرها الى ادم ليرى ماذا يدعوها ، وكل ما دعا به ادم ذات نفس حية فهو اسمها ، فدعا ادم باسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البر .
وعلم اللغة اليوم يرفض هذه النظرية ، فقوله تعالى " وعلم ادم الاسماء كلها " يحتمل ان يكون معناه ، كما اوضح ابن جني وكثيرون غيره ، ان الله اعطى القدرة للانسان على وضع الالفاظ . وما ورد في العهد القديم يكاد يكون دليلا على هذه النظرية لا معها، فهو يشير الى ان ادم هو الذي وضع اللغة .

2. نظرية الاصطلاح والاتفاق والمواضعة :

تذهب هذه النظرية الى ان اللغة ابتدعت بالتواضع والاتفاق ، وترى ان الانسان هو مصدر اللغة وواضعها وصانعها اذ يعتقد اصحاب هذه النظرية ان هناك مجموعة من البشر استوطنوا منطقة معينة وبدؤوا باطلاق الفاظ ومسميات لجميع الاشياء من حولهم كالكائنات الحية وغير الحية والاشياء المادية والمعنوية ، ومن انصار هذه النظرية ابن جني وابو علي الفارسي وكثيرون .
وقد ذهب اصحاب هذه النظرية مذهبا يلخصه ابن جني بقوله : كان يجتمع حكيمان او ثلاثة فصاعدا فيحتاجون الى الابانة عن الاشياء المعلومة فيضع لها لفظا او سمة تعرف عن غيرها ...
وليس لهذه النظرية اي سند عقلي او نقلي او تاريخي بل ان ما تقرره يتعارض مع النواميس العامة التي تسير عليها النظم الاجتماعية التي لاتخلق خلقا بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها ، فضلا عن ذلك فالتواضع على التسمية يتوقف في كثير من مظاهره على لغة صوتية ، يتفاهم بها المتواضعون ، فباي لغة تواصل هؤلاء.

3. نظرية محاكاة اصوات الطبيعة :

تذهب الى ان اصل اللغة محاكاة اصوات الطبيعة كاصوات الحيوانات واصوات مظاهر الطبيعة والتي تحدثها الافعال عند وقوعها ، ثم تطورت الالفاظ الدالة على المحاكاة وارتقت بفعل ارتقاء العقلية الانسانية وتقدم الحضارة .
وذهب لهذه النظرية ابن جني فيقول : وذهب بعضهم الى ان اصل اللغات كلها انما هو اصوات المسموعات كدوي البحر وخرير الماء ونعيق الغراب وصهيل الفرس ... ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد. وقد كان ابن جني معجبا بهذه النظرية حيث افرد لها بابا في كتاب الخصائص سماه (باب في امساس الالفاظ اشباه المعاني) قال فيه :
(ولو لم يتنبه على ذلك الا بما جاء عنهم من تسميتهم الاشياء باصواتها : كالخازباز – الذباب – لصوته والبط لصوته ...).
ان لهذه النظرية مايؤيدها فالطائر المسمى في الانكليزية Cuckoo انما سمي بالصوت الذي يحدثه ، والهرة سميت (مو) في المصرية القديمة وفي اللغة الصينية نسبة الى الصوت الذي تحدثه .
ومن ادلتها ان المراحل التي تقررها بصدد اللغة الانسانية تتفق في كثير من وجوهها مع مراحل الارتقاء اللغوي عند الطفل ، فقد ثبت ان الطفل في المرحلة السابقة لمرحلة الكلام يلجا في تعبيره الارادي الى محاكاة اصوات الطبيعة ، فيحاكي الصوت قاصدا التعبير عن مصدره.
الا ان هذه النظرية عورضت بالانتقاد القائل انها تعجز عن مبدا كيفية حكاية الاصوات في الاف الكلمات التي لاتوجد علاقة بين معناها وصوتها ، فما العلاقة بين لفظ الكتاب ومعناه مثلا ؟

4. نظرية محاكاة الاصوات لمعانيها :

تؤكد هذه النظرية ان جرس الكلمة يدل على معناها ، ويظهر ان هذه النظرية اعجبت ابن جني اشد الاعجاب ، فافرد لها بابين ، سمى الاول : (باب في تصاقب الالفاظ لتصاقب المعاني) واطلق على الثاني (باب في امساس الالفاظ اشباه المعاني) الذي نبه عليه الخليل فقال : كانهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا: سر ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعا فقالوا: صرصر. وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على وزن (فعلان) : انها تاتي للاضطراب والحركة نحو : الغليان و الغثيان . فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الافعال .
ويظهر ان الدكتور صبحي الصالح اعجب بهذه النظرية فعقد فصلا في كتابه (دراسات في فقه اللغة) سماه(مناسبة حروف العربية لمعانيها) اكد فيه ان الظاهرة اللغوية التي اوضحها ابن جني في المناسبة الطبيعية بين الالفاظ والمعاني (تعد فتحا مبينا في فقه اللغات عامة).
وقد رفضت هذه النظرية لعدة امور منها : ان الكلمات التي يمكن ان تفسر على مبدا هذه النظرية قليلة جدا . من ادلتهم انه اذا كان حرف الغين يدل على الظلمةوالخفاء والحزن كما ذهب بعضهم مستشهدين بكلمة (غم –غيم-غبن) فكيف تفسر كلمة (غني-غبطة)، وكذلك لو كانت النظرية صحيحة لما صح وضع اللفظ للضدين كالحميم للبارد والحار والجون للابيض والاسود ...

5. نظرية الاصوات التعجبية العاطفية :

تذهب الى ان اللغة الانسانية بدات في صورة تعجبية عاطفية ، صدرت عن الانسان بصورة غريزية للتعبير عن انفعالاته من فرح او وجع او حزن اواستغراب ...
فعندما نتافف نقول (اف) او (اوف) ، وكذلك الساميون عامة عندما يتحسرون اويتلهفون فيقولون (وي). وقد رفضت هذه النظرية للاسباب نفسها التي رفضت بها النظرية السابقة.

6. نظرية الاستجابة الصوتية للحركات العضلية :

ملخصها ان اللغة الانسانية بدات بالمقاطع الطبيعية التي يتفوه بها الانسان عفويا ، عندما يستعمل اعضاء جسمه في العمل اليدوي ، كما نسمع اذا وقفنا بقرب عامل يقطع شجرة او صخرا ، او بجانب رجل يحمل ثقلا ، او حدادا يعمل ... وقد رفضت هذه النظرية كسابقتها وللاسباب نفسها.

هكذا نرى انه لاتوجد نظرية يمكن ان تفسر نشاة اللغة الانسانية ، فكل النظريات رفضت لانها لم تفسر الا جانبا ضيقا جدا من اللغة ، معتمدة على الحدس والتخمين والغيبيات ، وهذه الامور يرفضها علم اللغة الحديث ، لان هذا العلم لايبحث الا فيما تؤكده المادة المحسوسة .